آية الله السيد محمد تقي المدرسي:

صرح المرجع الديني آية الله السيد محمد تقي المدرسي بأن الوجود الأمريكي حصل في ظروف طارئة، وبانتهاء هذه الظروف لابد لهذا الوجود أن يتقلص وينتهي. وقال إن الشعب العراقي لن يفرط باستقلاله في القرن الواحد والعشرين وهو الذي ناضل في سبيل الاستقلال في بداية القرن الماضي في ثورة العشرين الخالدة.

جاء هذا التصريح في لقاء خاص بـ(المدى) أجراه مندوبها في كربلاء ووصف السيد المدرسي أعمال المقاومة ضد الأمريكان بأن وراءها ايادٍ من بقايا النظام السابق والمتحالفين معه، هذه الأعمال- كما قال- تعرقل بناء مؤسسات البلد، وتعرضنا إلى حروب جديدة، وقد تعينا من الحروب المتتالية

الشعب العراقي لن يفرط باستقلاله ووراء أعمال (المقاومة) بقايا النظام السابق.

كربلاء/ المدى

وأشار السيد المدرسي بأن بناء مؤسساتنا الوطنية، وبالسرعة المكنة، كفيل بانهاء الوجود الأمريكي، إذ لا مبرر لبقائه بعد ذلك.

وفي سؤال لـ(مدى) عن الخطوات اللازمة لتحقيق الاستقرار أجاب آية الله المدرسي: بوجود عاملين للاستقرار، الأول خلقي يتلخص بان لا يعيش الشعب العراقي في دوامة الماضي، ناظراً إلى الأمور من خلال الشك والريبة والعيش داخل كابوس يفقده الأمل. فعليه أن يتطلع إلى المستقبل، باحثاً عن آفاق وحلول ناجعة لمستقبله، وبدلاً من لعن الظلام علينا أن نشعل شمعة.

والثاني العدل الذي يتسع للجميع ويستطيع الناس العيش في ظله الوارف بلا مشكلات، ومن دون تعكير الأمن واحداث البلبلة. الاستقرار يبدأ من داخلنا عن طريق التسامح والانتباه الى المستقبل وبناء الوطن.

وبشأن وجود حركات وأحزاب إسلامية متعددة، أشار السيد المدرسي بأنه يؤمن بالتعددية وليس بالوحدة القسرية، ورحب بوجود حركات وأحزاب مختلفة في طور وحاتها، فهذه التعددية أفضل للجميع، لأنها تعطي للجماهير حق الاختيار وانتخاب الأصلح بوجود التنافس، والتنافس نفسه يجعل هذه الحركات والأحزاب أكثر نشاطاً وتحسباً في أدائها وخطواتها، وعلى هذا النحو يحدث نوع من التطوير للاساليب والأدوات. وأشار السيد المدرسي إلى أن للتعددية بعض المعايب، وهو أمر طبيعي، لكن العيب المهم الذي يجب الانتباه إليه هو أن يتحول التنافس الحر إلى صراع هدام يعرقل بناء الوطن.

وعن سؤال عما إذا كان من الممكن قيام حكم إسلامي في العراق يقوده رجال الدين على غرار الحكم في إيران أوضح سماحته أن هذا الأمر راجع إلى رغبة الشعب التي تتحدد في الانتخاب، لكنه أشار إلى أن دولة كهذه لو أقيمت في العراق فلن تكون على غرار الحكم في إيران، فلكل بلد تطلعاته واساليبه وثقافته واعرافه. وكما أن لكل دولة ظروفها، فإن نسخ نظام سياسي خارجي غير صحيح.

وأشار السيد المدرسي عن دور رجل الدين وإمكانية تدخله في الأمور الإدارية للسلطة السياسية فقال أن رجل الدين لا يختلف عن بقية الناس، لأنه واحد منهم يعيش بينهم، فإذا ما كانت هناك حاجة لأن يقوم بدور إداري ويمتلك الكفاءة لذلك فليتفضل، أما إذا لم يكن له حاجة، وليست له القدرة فدوره الديني أهم من دوره الإداري.

تقرير منظمة هيومن رايتس ووتش

العدوان على عرب الأهوار !

كارثة إنسانية لم يلتفت اليها أحد والأمم المتحدة لم تتخذ أي اجراء

اعتقالات واعدامات جماعية وحرمان من الحصص الغذائية

تتضمن هذه الدراسة تفاصيل الحملة المستمرة التي شنتها الحكومة البعثية العراقية على طائفة "المعدان" أو من يسمون بعرب الأهوار، وهم الشريحة السكانية التي يتكون معظمها من الشيعة وتقيم في الأهوار، أي أراضي المستنقعات في جنوبي العراق عند التقاء نهري دجلة والفرات. وكان عدد هؤلاء يبلغ نحو (250) ألف نسمة منذ عهد قريب، أي في عام (1991)، ولكن المعتقد أن عددهم قد تضاءل الآن فلم يعد المقيمون منهم في أرض اجدادهم يصل إلى (40) ألفاً، حيث تعرض الكثيرون منهم للاعتقال أو "الإخفاء" أو الإعدام، وغدا أغلبهم من اللاجئين في الخارج، أو النازحين داخل العراق، نتيجة الاضطهاد والاستئصال المتواصل لسكان الأهوار العرب وثقافتهم، وهم الذين لم يبرحوا منطقة الأهوار المذكورة بل ظلوا مقيمين فيها لما يزيد عن (5000) عام.

وصف بيئي سكاني

كان يقيم في الأهوار ذات يوم مئات الآلاف من السكان، وهم من يطلق عليهم أسم "المعدان"، وقد احتفظوا بأسلوب حياتهم الفريد لما يربو على (5000) سنة.. وتتفاوت تقديرات عدد السكان بصفة أساسية بسبب ندرة البيانات الحكومية الرسمية، والصعوبة النسبية في الوصول إلى تلك المنطقة، مما أدى إلى تجاهل بعض قطاعات شعب المعدان في تعدادات السكان. وقد انتهت إحدى الدراسات الأنثروبولوجية إلى تقدير عددهم بنحو (400) ألف نسمة في الخمسينيات. وأدت الهجرة لدوافع اقتصادية ما بين الستينيات والثمانينيات إلى تخفيض عدد السكان إلى ما يقدر بنحو (250) ألف نسمة في عام (1991). وفي عام (1993) قدرت منظمة (هيومن رايتس ووتش) عدد السكان الريفيين للأهوار بنحو (200) ألف نسمة، وهو رقم يأخذ في حسابه الأعداد الكبيرة من الفارين من الجيش والمعارضين السياسيين الذي سعوا للاحتماء بالمنطقة بعد عام (1991). ومن المحتمل أن عدد من بقي اليوم من السكان الأصليين لا يزيد عن (20) ألف نسمة بعد أن فر الباقون أو هاجروا إلى إيران وغيرها، كما تشير التقديرات إلى أن مائة ألف على الأقل قد أصبحوا من النازحين داخلياً في العراق.

ولم يكن قد طرأ تغيير يذكر حتى الخمسينيات من القرن العشرين على أسلوب عيش الكفاف التقليدي لشعب الأهوار، وكان اقتصاده التقليدي الذي يتسم بالاكتفاء الذاتي يدور حول بيئتهم المائية، ويعتمد على الأعمال التقليدية مثل صيد الأسماك والزراعة وتربية الجاموس وجمع البوص (الذي ادى إلى نشأة صناعة المنتجات اليدوية من الخيزران)، وكانت الهجرة إلى المراكز الحضرية، سواء كان ذلك طلباً للعمل الدائم أم الموسمي، هي السبب الأول لانخفاض عدد السكان الأصليين حتى أواخر الثمانينيات، وعندها بدأت السياسات الحكومية المستهدفة لعرب الأهوار - والتي تناولتها هذه الدراسة- فزادت زيادة كبيرة في معدلات نقص السكان.

كانت الأهوار قبل تدميرها تغطي مساحة تصل إلى (20) ألف كيلو متر مربع، حول التقاء نهري دجلة والفرات في جنوبي العراق. ومن الناحية الإدارية تقع الأهوار في ثلاث من محافظات العراق الثماني عشرة ميسان (أصلا العمارة) وذي قار (أصلا الناصرية) والبصرة. ومن الناحية الجغرافية يشمل قلب الأهوار على ثلاث مناطق رئيسة هي (أ) أهوار الحمار، الواقعة جنوب نهر الفرات بين الناصرية والبصرة، (ب) الأهوار الوسطى، الواقعة بين نهري دجلة والفرات في منطقة على شكل مثلث تحده الناصرية، والقرنة، وقلعة صالح، إلى جانب قسم شمالها حول مدينة العمارة (المشهورة بأسم أهوار العمارة) و (ج) أهوار الحويزة الواقعة شرق نهر دجلة والممتدة داخل إيران حيث تعرف بأسم أهوار العظيم). وكانت هذه المسطحات المائية تشكل معا سلسلة من المستنقعات والبحيرات الدائمة والمتداخلة، والتي تبلغ مساحتها نحوا من (8000) كيلو متر مربع، وقد تتسع المساحة فتصل إلى نحو (20) ألف كيلو متر عندما تغمر المياه في موسم الفيضان مساحات شاسعة من الأراضي الجافة أو الصحراوية.

كارثة بيئية

ويختلف عرب الأهوار عن غيرهم الشيعة في أنهم تعرضوا الكارثة بيئية من تدبير الحكومة، فعلى الرغم من أن مسؤولي التخطيط في الحكومة قد وضعوا الخطط والمشروعات اللازمة لتجفيف الأهوار لأغراض اقتصادية منذ أواخر الخمسينيات، على الأقل، فإن جهود التجفيف- بتصريف المياه بها- لم تبدأ بصورة منتظمة إلا في أعقاب الانتفاضة الفاشلة ضد الحكومة في عام (1991)، وهو ما سوف نورد تفاصيله هنا، وكان الدافع الأول لها سياسيا لا اقتصاديا. فقامت السلطات، ابتداء من عام (1991)، وبغية تيسير دخول القوات المسلحة إلى المنطقة، بإنشاء سلسلة من الخزانات والسدود والقنوات التي تستهدف منع مياه دجلة والفرات من التدفق إلى الأهوار. ولم يكد ينقضي عقد واحد حتى ظهرت النتيجة، وهي تدمير اضخم نظام بيئي للمسطحات المائية في الشرق الأوسط. وكشفت دراسة بيئية قام بها برنامج الأمم المتحدة للبيئة عام (2001)، استناداً إلى صور لم تسبق رؤيتها بالأقمار الصناعية، مدى الخراب الذي حل بمنطقة الأهوار المذكورة. وكانت الصور التي التقطتها الإدارة الوطنية للطيران والفضاء بالولايات المتحدة في عام (1992) و (2000) تؤكد تدمير ما يقرب من (90) في المائة من الأهوار، وهو ما وصف بأنه "من أسوأ الكوارث البيئية في العالم". ويعزو علماء برنامج الامم المتحدة للبيئة تجفيف الأهوار، إلى حد ما، إلى إقامة الخزانات الكثيرة على نهري دجلة والفرات، في أعالي النهرين (حيث يمران بالعراق وإيران وتركيا) وهو العمل الذي بدأ في الخمسينيات ولا يزال مستمراً. ولكن برنامج الأمم المتحدة للبيئة قد انتهى إلى "ازدياد معدل وسرعة اختفاء الأهوار... يرجع في المقام الأول إلى عمليات الصرف الكبيرة التي جرت في أعقاب الثلاثل المدنية التي نشبت بعد حرب الخليج الثانية في عام (1991)"، وإلى أن "تحليل صور الأقمار الاصطناعية يبين أن النظام البيئي للأهوار قد انهار بحلول عام (2000)".

وتعتقد منظمة (هيومن رايتس ووتش) أن عدداً كبيراً من الأعمال التي تقوم بها الحكومة العراقية في قمعها المنهجي لعرب الأهوار تمثل جريمة ضد الإنسانية. وكانت الجرائم التي ترتكب في إطار العدوان الواسع النطاق والمنهجي على السكان المدنيين من عرب الأهوار خلال عقد التسعينيات.

وكان العدوان يتضمن ارتكاب عدد من الأعمال تنفيذاً للسياسات الحكومية، والجرائم التي تنطوي عليها هذه الأعمال تتضمن ما يلي:

* قتل الآلاف من المدنيين العزل في أعقاب الانتفاضة الفاشلة في مارس/آذار (1991)، وذلك من خلال الاعدام الفوري، والقصف بالطائرات والمدافع دون تمييز للمناطق السكنية في المدن والقرى المجاورة للبصرة والناصرية والعمارة وفي شتى أرجاء منطقة الأهوار.
* نقل السكان قسراً، أي الطرد القسري لجانب من سكان الأهوار العرب من قراهم الأصلية إلى مستوطنات في الأراضي الجافة على مشارف الأهوار، وعلى امتداد الطرق العامة الكبرى، تسهيلا لسيطرة الحكومة عليها.
* الحبس التعسفي والطويل الأمد للآلاف الذين اعتقلوا أثناء القصف العسكري للمناطق السكنية في الأهوار، وفي أعقابه، وكان من بينهم مدنيون وآخرون اشتبه في قيامهم بأنشطة مناهضة للحكومة.
* تعذيب المعتقلين من عرب الأهوار الذين احتجزتهم الحكومة، ابتغاء انتزاع المعلومات منهم، وعقابا لهم، وباعتبار التعذيب من وسائل إلقاء الرعب في قلوب السكان المحليين.
* "الإخفاء" القسري للكثيرين من عرب الأهوار الذين قبض عليهم في التسعينيات، ولا يزال مصيرهم ومكان وجودهم في طي المجهول حتى اليوم.
* اضطهاد عرب الأهوار من خلال حرمانهم عمداً وبقسوة من حقوقهم الاساسية على اساس هويتهم الدينية والسياسية باعتبارهم مجموعة متكاملة.

لقد ادى افتقار المجتمع الدولي إلى العزم والحسم إلى إطلاق يد الحكومة العراقية وتمكينها في الواقع الفعلي من ممارسة القمع بحرية وعلى نطاق واسع، فواصلت ذلك بأساليب شتى أصبحت النمط السائد في الأعوام القليلة التالية، وترك المجتمع الدولي العراق يقوم بالعمليات الحربية البرية التي تساندها الطائرات المروحية (التي يحظرها اتفاق وقف اطلاق النار) بمنجاة من العقاب في الأغلب الأعم، إلا إنا خرقت شروط اتفاق وقف إطلاق النار لعام (1990) باستخدام الطائرات ذات الأجنحة الثابتة داخل منطقة الحظر، واتفقت اقوال عشرات اللاجئين الذين فروا طلباً للسلامة في إيران، والذين أجرت معهم منظمة هيومن رايتس ووتش مقابلات شخصية في عام (1993)، عن الأساليب التي كانت القوات الحكومية تستخدمها، فذكروا أنها تتضمن ما يلي:

* الهجمات المكثفة، بما في ذلك القصف جواً وبراً ودون تمييز للمناطق السكنية في المدن والقرى القريبة من البصرة والناصرية والعمارة.
* الاعتقالات الجماعية من خلال تفتيش المنازل في أعقاب قصف القرى بمدافع الميدان ومدافع الهاون، واستخدام القوات المسلحة النظامية والقوات الخاصة وقوات الحرس الجمهوري في هذه العمليات.

وكان المعتقلون في معظم الحالات يساقون معصوبي العيون إلى أماكن غير محددة، ثم لا يرجعون، بينما كان آخرون يحتجزون بضعة أيام ثم يطلق سراحهم بعد التحقيق معهم وتعذيبهم. وكان القصد من ذلك فيما يبدو هو بث الرعب في قلوب أهالي المنطقة وإظهار الحكومة العراقية بمظهر القوة التي مازالت تسيطر على المنطقة برغم فرض حظر الطيران في أجواء المنطقة المذكورة.

* تدمير المساكن والممتلكات عمداً وعلى نطاق واسع بهدمها بالجرافات أو بإحراقها. وكان ذلك ينفذ بصورة منهجية بعد القصف الأرضي أو الجوي للقرى المستهدفة، لغرضين هما منع ساكنيها من العودة إليها وحرمانهم من ممتلكاتهم. وعلى غرار ذلك كانت القوات الحكومية تشعل النار في المحاصيل وغيرها من المزروعات، وتقتل حيوانات الفلاحين عمداً.
* غرس الألغام دون تمييز في البر والمسطحات المائية، وكان استعمال الألغام التي لا تدل عليها أي علامات قد وردت أنباؤه في مطلع عام (1992) ولكنه استمر بعد فرض "منطقة حظر الطيران". ومعظم ألغام المسطحات المائية وضعت في أهوار الحمار والعمارة، وكان يجري إخفاؤها في مداخل الأنهار وحول مداخلها في الأهوار، وذلك فيما يظهر لقتل الداخلين إلى هذه المناطق أو الخارجين منها، أو لإصابتهم بالعجز. وكانت الألغام البحرية توضع أيضا في المسطحات الضحلة التي يستعملها أهالي المنطقة، قبل إقامة أشغال الصرف التي جعلت من المحال استعمال القوارب كوسيلة رئيسة للتنقل في الأهوار، وورد أنها تسببت في قتل وإصابة العشرات من المدنيين، إلى جانب اعداد كبيرة من الجاموس والأبقار التي يعتمد عليها جانب كبير من الاقتصاد المحلي. أما الألغام البرية فكانت تستعمل بصفة أساسية في المناطق التي يجري إخلاؤها للصرف، بما في ذلك القرى المخربة داخلها وحولها لمنع السكان من الرجوع إليها، وكانت تغرس أيضا على امتداد الشواطيء وذلك فيما يبدو لحمايتها من هجمات قوات المعارضة المسلحة.
* حرمان الجرحى المدنيين من العلاج، وخصوصاً من ينتمون منهم إلى قبائل تعتبر "معادية" للحكومة، او لمن تقع مساكنهم في "المناطق المحظورة" (اي التي أخليت تمهيدا لاشغال الصرف أو لأغراض عسكرية).. وكان الذي يسعى للعلاج في عيادات أومستشفيات حكومية يعرض نفسه لخطر القبض عليه، ولذلك كان المصابون يجري تهريبهم إلى إيران، حيثما امكن ذلك، طلبا للعلاج، وإن كانت الرحلة محفوفة بالمخاطر، وكان البعض يقضون نحبهم أثناءها، بل إن المدنيين الذين يمرضون أو يحتاجون إلى العلاج من العلل العادية كانوا يواجهون مشكلات مماثلة، خصوصاً عندما بدأت الحكومة في إزالة المخزونات الطبية من المستشفيات والمدن الكبرى الواقعة بالقرب من الأهوار (بما فيها وراء خط العرض (32).
* إحكام تطبيق الحصار الاقتصادي الذي فرضته الحكومة على المنطقة (بموجب "خطة العمل" الخاصة بالأهوار)، وهو الذي استتبع حظراً تاماً على نقل المواد الغذائية، ومنتجات تكرير النفط والأدوية إلى الأهوار، وورد أن دوريات الجيش كانت تقوم بتفتيش المسافرين إلى داخل المنطقة، وكانت تصادر أي أغذية ترى أنها تزيد عن حاجة الأسرة فتستولي عليها أو تعدمها. وكان مهربو الأغذية، إذا قبض عليهم، يعاملون معاملة سيئة في حالات كثيرة، وقد يصل ذلك إلى الاعدام الفوري. ويقول المقرر الخاص للأمم المتحدة، مستشهدا بما ذكره لاجئو الأهوار النين وصلوا إلى إيران، ان السلطات قد حرمت الأسر التي رفضت الانتقال إلى المساكن الحكومية، من المؤونة الغذائية الشهرية التي يجري توزيعها بنظام بطاقات الحصص التموينية الذي بدأ العمل به بعد فرض عقوبات الأمم المتحدة.

وأدى ذلك إلى تفاقم الحالة التي كانت قد بلغت درجة عظمى من السوء، إذا أن عزلة الأهوار وتعذر الوصول اليها أدى إلى عدم تسجيل بعض أفراد شعب المعدان رسميا في السجلات الحكومية، وعدم حصولهم على بطاقات الهوية اللازمة للتسجيل ابتغاء تلقي الحصص الغذائية.

ذاكرة الزمن

سلوى زكو

عبد الكريم قاسم

اذكره جيداً.. مديد القامة نحيلها.. عيناه قلقتان لا تستقران في محجريهما.. صوته ذو نبرة عالية يبدو أنه اكتسبها من سنوات خدمته في الجيش حيث يضطر الأمر إلى رفع نبرة صوته كي يسمعه جنوده في الميدان.

لم يكن خطيباً مقتدراً خاصة إذا قورن بمعاصره عبد الناصر الذي امتلك قدرة متميزة على مخاطبة الجماهير.. السيطرة على نبرات الصوت وتكرار الفكرة ذاتها بتنويعات مختلفة ومخاطبة المشاعر واستثارتها.

لم يكن عبد الكريم قاسم من هذا الطراز، تجده أحياناً يلقي بفكرة في بضع كلمات يمكن لغيره أن يحيلها إلى خطاب قد يستمر ساعة دون أن يتسرب الملل إلى سامعيه. هذه ميزة يتمتع بها بعض القادة السياسيين تصقل فيما بعد بالتدريب وطول الممارسة، ولم تتح للرجل فرصة أن يتدرب على فن الخطابة. لكنه دخل قلوب العراقيين وخاصة البسطاء منهم. من أي باب دخل؟

بعض القادة يظنون أنهم يبهرون شعوبهم بمظاهر الفخامة.. فخامة المبنى والأثاث وموكب السيارات والملبس والسيجار الكوبي الثمين.. وما دروا أنهم يبنون بذلك جداراً بينهم وبين شعوبهم، وإن كل محاولات التقرب تفشل لأنها ببساطة لا تتطابق مع الهالة المرسومة حول الشخصية القائدة.

كان عبد الكريم قاسم شديد التواضع حد الخجل أحياناً، يطوف شوارع بغداد حتى الفجر.. يستمع إلى شكاوى الناس ومشكلاتهم.. يستقبل في مكتبه صنوفاً متعددة من البشر السياسيين إلى الطلاب إلى النساء إلى النقابات.

لم يكن الناس يجدون حرجاً في مخاطبته خطاب الند للند، اذكره مرة وكان الموقف السياسي قد بدأ يتأزم، كان من عادته أن يخرج ليتحدث إلى الجماهير واقفاً على مرتفع على أحد جانبي بوابة وزارة الدفاع، وجموع من البشر تتدافع لتلتقط الصوت ذا النبرة الحادة.

وبينما كان يتحدث، قاطعته فجأة امرأة من وسط الحشد صائحة:

(ولك كرومي.. ابني موقوف صار له ثلاثة أيام.. وين أروح؟).

ارتبك الرجل للمفاجأة.. صمت لحظة لكنه سرعان ما لملم ارتباكه، رسم ابتسامة عريضة على وجهه وأشار لها أن ادخلي لمقابلتي وراحت المرأة تشق طريقها وسط الحشد راعدة متوعدة بصوتها المجلجل.

أتيح لي أن التقي عبد الكريم قاسم في بدايات الثورة ضمن وفود كانت تزوره بلا انقطاع. كان مكتبه في الطابق الثاني بوزارة الدفاع، تدلف إلى غرفة صغيرة بسيطة التأثيث حيث يستقبلك بمودة مرافقه الشهيد وصفي طاهر، لا يدعونك تنتظر طويلاً فدفة المواعيد مكتسبة من عادات الجيش.

تدخل غرفته فتجده واقفاً بانتظار زائريه حيث يجلس الجميع حول طاولة الاجتماعات، في صدر الغرفة مكتب متواضع وإلى اليمين دولاب بضلفتين من زجاج رتبت فيه هدايا الوفود الأجنبية، هذا كل ما في غرفة الرجل من اثاث وظلت كذلك طوال خمسة أعوام وأقل هي عمر حكم هذا الرجل من هذا المكان المتواضع، كان عبد الكريم قاسم يدير دفة العراق وسط بحر هائج متلاطم.

في بداية اللقاء، كان الرجل يبدو على شيء من التردد والارتباك وهو يرى عشرات العيون محدقة به. ثم يستجمع نفسه ليبدأ حديثه إلى ضيوفه.. حديث ينطلق من ذهن صاف يرسم بكلمات بسيطة أحلامه عن العراق والعراقيين. هل تشوش صفاء هذا الذهن فيما بعد؟ ربما، فلقد كانت هذه لقاءات السنة الأولى المليئة بالأحلام وعنفوان التحدي، لم التقه قط في سنوات محنته، حيث بدأت الخيوط تنفلت من بين أصابعه وأحدا إثر الآخر.

كان آخر لقاء في بيت الجواهري الكبير.

كنا مجموعة من صغار المثاقفين نعود الشاعر الذي ألمت به وعكة صحية.

كان الجواهري يسكن بيتاً قديماً متواضع الأثاث حد الفقر، تضغط صورة البيت الآن على الذاكرة لتقارنه بقصور فارهة سيبنيها فيما بعد شعراء مدحوا السلطان فأغدق عليهم النعم كي يصبح ولي النعم.

وجدت عملاق الشعر يرقد في الطابق الثاني على سرير حديد ضيق وإلى جانبه منضدة صغيرة حال لونها وضعت فوقها بضع صحف ومنفضة سجائر وقدح شاي.

في الغرفة الصغيرة دولاب عتيق وكرسيان من الخيزران.. وهذا كل شيء.

صاحت سيدة من الطابق الأول.. جاء الزعيم.. وفيما كان الجواهري يحاول لملمة ملابسه استعداداً للنهوض، كان عبد الكريم قاسم قد صعد الدرجات وثباً ليصبح على عتبة الباب.

رفض أن يغادر الجواهري فراشه لتحيته ورفض كرسي الخيزران الذي قدم له، بل جلس على حافة السرير. تبادل الرجلان حديثاً خافت الصوت أوحى لي بأن كليهما محرج يجد صعوبة في التعبير عن مشاعره بالكلمات.

مد الجواهري يده إلى علبة السجائر واستخرج قلم رصاص من تحت مخدته وهو يرمق ضيفه بنظرة اعتذار أن انتظرني قليلاً. وغرق الشاعر في بحر شعره في حين جلس عبد الكريم قاسم صامتاً محلقاً في حضرة لحظة الشعر.

رفع الجواهري رأسه بعد أكثر من عشر دقائق ليقرأ بضعة أبيات من الشعر يشكر فيها زائره. تبسم عبد الكريم قاسم بامتنان، دسّ علبة السجائر في جيبه، إنحنى ليقبل جبين الشاعر ثم خرج.

لم يمر زمن طويل حتى بدأ الرجل يواجه عواصف التغيير.. وجد نفسه فجأة في مواجهة الدول الكبرى والطابور الخامس وضغوط القوى السياسية في الداخل والدول العربية من حوله، كانت حركة التغيير نشيطة، ضاجة وواسعة المدى مست الإقطاع واحتكارات النفط والأحلاف وبدأ يحارب على عشرات الجبهات ويخسر المعارك واحدة إثر أخرى.

وراح الرجل ضحية زمن اتسم بقلة الخبرة السياسية والانقطاع شبه التام عن معطيات السياسة العالمية والجهل بمفردات لعبة الأمم والأجواء الملغومة بالدسائس والفتن والتباس الرؤية، أفلتت كل الخيوط من بين أصابعه وبذل عشرات المحاولات من اجل استرجاعها، لكن المرحلة كانت أكبر منه بكثير.

وحين حانت الساعة، اختار عبد الكريم قاسم أن يقاوم حتى النهاية. ظل يقاوم المهاجمين من داخل وزارة الدفاع وحين اقتحمت، انتقل للمقاومة من داخل قاعة الشعب المجاورة، ومعه كانت فصائل من الشعب تقاوم بأسلحتها البسيطة في مناطق مختلفة من بغداد.

وصل البعثيون إلى الحكم بقطار أمريكي على حد وصف علي صالح السعدي أحد قادتهم البارزين، ودعس القطار الأمريكي عبد الكريم قاسم.

يتحدث شاهد عيان عن اللحظات الأخيرة من حياة عبد الكريم قاسم.. جيء به إلى دائرة الإذاعة والتلفزيون، وقف منتصباً في مواجهتنا وعيناه تقدحان شرراً. كان أعزل وكنا جميعاً مسلحين، لكن البنادق كانت ترتجف في أيدينا لرهبة الموقف. لم يقل سوى جملة واحدة قال مخاطباً عبد السلام عارف.. الم أحفظ لك حياتك يا سلام؟

بعد ذلك انهال الرصاص وطويت صفحة من تاريخ العراق.

بعد سنين طوال سيتعلم العراقيون معنى أن يكون القائد عف النفس، عف الضمير وعف اليد. لقد رحل الرجل مخلفاً وراءه دفتر توفير فيه بضعة دنانير وبدلة عسكرية مثقبة بالرصاص، وآراء متلاطمة حول فترة حكمه يصل بعضها حد تحميله تبعة ما نحن فيه اليوم.

من كان منكم بلا خطيئة...